الفصل الخامس

رمسيس الثانى ومعارك الخلود

فى عام ١٢٧٩ ق. م ، خلف فرعون مصر الشهير الملك « رمسيس الثانى » والده الملك « سيتى الأول » على عرش مصر ، وكان ملك مصر الشاب طموحاً وجسوراً إلى حد بعيد ، ومن ثم فقد عمل على استكمال مشاريع والده العسكرية فى آسيا والتى هدفت إلى إستعادة أملاك الإمبراطورية المصرية هناك .. وكان أمراً حتمياً أن يحدث مرة أخرى الصدام الحربى الكبير بين أكبر قوتين فى منطقة الشرق الأدنى القديم آنذاك ، وهما الإمبراطورية المصرية والإمبراطورية الحيثية ، حيث قاد الملك « رمسيس الثانى » الجيش المصرى لقتال القوة الحربية الأقوى فى عصره المتمثلة فى الحيثيين ، وخاض الفرعون ضد الحيثيين وحلفائهم معركة تعد هى الأشهر والأقوى فى تاريخ العالم القديم على الاطلاق وهى معركة قادش الكبرى ، التى تعددت المصادر والدراسات التاريخية الخاصة بها ، والتى أعتبرها المؤرخون بالفعل مواجهة عسكرية فاصلة وحاسمة فى تاريخ العالم القديم .. ولولا النضال الحربى المرير الذى خاضه « رمسيس الثانى » فى معركة قادش ، ولولا تلك المعارك الحربية الضارية التى قاد فيها الفرعون الجيش المصرى فى سوريا وكنعان إلى النصر فى أعقاب معركة قادش ، لما تحقق السلام فى المنطقة بين القوتين العظمتين مصر وخيتا ، ومن ثم فقد أستحقت تلك المعارك التى خاضها هذا الفرعون المحارب الباسل بأن يطلق عليها معارك الخلود.

الأمير المحارب وغزو النوبة ..

عندما تولى الملك « سيتى الأول » عرش البلاد منح الأمير « رمسيس » – باعتباره أكبر أبناء الملك – اللقب الفخرى الضخم « القائد العام للجيش » ، وإن كان بعض المؤرخين قد رأوا أن هذا المنصب كان فخرياً وبلا سلطات حقيقية ، لأن الأمير « رمسيس » كان يبلغ من العمر آنذاك عشر سنوات ، ومع ذلك فقد ظل « رمسيس الثانى » يفخر بهذا اللقب طوال عمره .. وقد شارك الملك « رمسيس الثانى » عندما كان أميراً فى حملة الملك « سيتى الأول » الحربية على

ليبيا ، حيث كان يبلغ من العمر أربعة عشرة عاماً ، وقد دلت نقوش هذه المعركة التى سجلت على جدران معبد الكرنك على ضآلة دور الأمير « رمسيس » فى هذه المعركة ، ولكن سرعان ما أبرز الأمير بتكوينه الضئيل فى أحد المشاهد ، حيث كان يبدو كما لو كان يساعد أباه الملك « سيتى الأول » فى قتل أحد القواد الليبيين .. وقد رافق الأمير أباه للمرة الثانية وشارك فى حملة الفرعون على الجبهة السورية فى السنة التالية التى استهدفت غزو قادش وآمورو.

وفى العام الثالث عشر من عهد والده ، قاد « رمسيس الثانى » الحملة الحربية التى وجهت إلى النوبة السفلى باسم والده وكان حينها يبلغ من العمر نحو اثنان وعشرون عاماً ، وبالمثل فقد قام « رمسيس الثانى » فى تلك الحملة باصطحاب اثنين من كبار أبنائه هما الأميرين « آمون حر خبش إف » و« خع إم واست » .. ويمكننا القول أن هذه الحملة الحربية كانت أولى المعارك الحربية الهامة التى قادها الفرعون المحارب بنفسه حين كان ولياً للعهد ، وقد سجلت مناظر هذه الحملة على جدران معبد بيت الوالى بالنوبة ، ونشاهد من خلال هذه المناظر هجوماً للقوات المصرية على قرية نوبية فى أقصى الجنوب ، ويعلو صور العدو فيها نص يقول « الذين يعتدون على حدوده » ، مما يشير إلى أنها حملة تأديبية للجيش المصرى. ويظهر فى المنظر « رمسيس الثانى » فوق مركبته (عربته) الحربية يتبعه الأميرين « آمون حر خبش إف » و« خع إم واست » فى عربتيهما الحربية ، وهم يهجمون على مجموعة من النوبيين المسلحين بالأقواس والسهام ، وهم يفرون إلى معسكرهم وسط النخيل ، ويحمل محاربان نوبيان زميلهما الجريح ، ونرى النساء والأطفال يتدافعون فى ذعر. ثم يلى ذلك منظر للفرعون « رمسيس الثانى » جالساً فى خيمته على عرشه ، يتقبل الجزية من كوش ، يقدمها له نبلاء مصريون ، من بينهم نائب الملك فى كوش « آمون إم أوبت » ، وقد رافق الجزية بعض الأسرى ، كما صور أيضاً مجموعة من الجنود النوبيين المسلحين بالحراب ، كدليل على استخدامهم فى الحملات التأديبية ضد بلادهم ، وكشاهد أيضاً على اطمئنان الحكم المصرى فى الجنوب وقت ذاك.

وهناك أحد المناظر الشهيرة المسجلة فى معبد أبوسمبل الكبير التى صور من خلالها الملك « رمسيس الثانى » فوق مركبته الحربية وقد رافقه أسده وأحد الرماة المصريين وتبعه صفين من الأسرى النوبيين المقيدين ، ويرى جانب كبير من المؤرخين أن هذا المنظر يرتبط بنفس

الحملة المسجلة على جدران معبد بيت الوالى والتى تمت خلال عهد الملك « سيتى الأول ». كما سجلت مناظر لحملة نوبية على جدران معبد الدر تتشابه تماماً مع المناظر المسجلة فى معبد بيت الوالى ، وقد صور الفرعون من خلالها وهو عائداً بالأسرى النوبيين.

ولقد حرص « رمسيس الثانى » من خلال معابده العديدة التى قام بتشييدها فى بلاد النوبة – والتى تمثلت فى معابد بيت الوالى وأبوسمبل الكبير وأبوسمبل الصغير والدر ووادى السبوع وجرف حسين وعكشا وعمارة غرب – على أن يسجل الكثير من مناظر الانتصار الرمزية التى تصور قمعه للنوبيين وسيطرته على بلادهم فى كثير من الزهو ، الأمر الذى يشير إلى مقدار خضوع النوبة للسيطرة والهيمنة المصرية خلال عهده.

الحرب على الشردان قراصنة البحار ..

فى العام الثانى من عهد الملك « رمسيس الثانى » واجهت مصر إحدى هجمات شعوب البحر من الشردان على سواحلها الشمالية ، وقد قام الفرعون بإرسال قواته وسفنه على النقاط الاستراتيجية الموجودة على السواحل الشمالية لمصر ، وبالفعل تصدت القوات المصرية لهذا الهجوم وقامت بأسر عدد كبير من الشردان .. وقد تم تسجيل هذا الحدث التاريخى على لوحة عثر عليها فى تانيس وصفت هؤلاء الغزاة الشردان بأنهم « قد قدموا فى سفنهم من أواسط البحر ولم يتمكن أحد من الوقوف فى وجههم » ، وأغلب الظن أن المعركة التى وقعت بين القوات المصرية والغزاة الشردان قد كانت معركة بحرية عند مصبات النيل .. وقد ألحق عدد كبير من هؤلاء الأسرى الشردان بالخدمة العسكرية المصرية ، ووجدوا مصورين وهم يقاتلون فى صفوف الجيش المصرى فى معركة قادش وأصبحوا يكونون جانباً كبيراً من حرس الملك « رمسيس الثانى » ، كما استمر تواجدهم فى صفوف الجيش المصرى طوال عصر الرعامسة.

الحملة السورية الأولى ..

حين خلف الملك « رمسيس الثانى » والده الملك « سيتى الأول » على العرش عمل على توجيه عنايته إلى مواصلة حروب أبيه فى سوريا ، وفى هذه الأثناء كانت حدود الإمبراطورية المصرية فى آسيا تشمل بلاد كنعان وأجزاء واسعة من الساحل الفينيقى ووادى البقاع. ومن ثم فقد قام الفرعون بأولى حملاته على سوريا فى العام الرابع من حكمه ، وقاد الفرعون الجيش المصرى للمسير عبر ساحل كنعان ولبنان إلى عرقاتا ، ثم عاد عن طريق جبيل وصيدا ونهر الكلب (شمال بيروت) .. وتمثلت نتيجة هذه الحملة فى إحكام قبضة الفرعون على صور وجبيل ، ويبدو أنه تجاوزهما على الساحل وأستولى على عرقاتا بعد أن قام بحصارها ، ثم قام بمهاجمة آمورو التى استولى عليها فى خلال شهرين ، وأصبح الطريق ممهداً إلى قادش ، إلا أن الفرعون ترك مهمة الاستيلاء على قادش إلى حملته التالية ، وعاد إلى مصر بعد هذه الحملة المظفرة حيث أقام العديد من النصب التى أشار فيها إلى هذا النصر فى جبيل ، كما ترك نقشاً عند نهر الكلب بالقرب من بيروت ، وربما قد ترك نقشاً ثالثاً فى صور.

معركة قـادش الكبرى ..

تمثلت الحملة الحربية الثانية للملك « رمسيس الثانى » فى آسيا فى معركة قادش الشهيرة التى اعتبرت فى رأى الكثير من المؤرخين والباحثين المعركة الحربية الأشهر فى تاريخ العالم القديم ، حيث تعد معركة قادش الحدث الحربى المصرى الذى تجمع عنه أكبر قدر من الوثائق ، فقد سجلت عدة مرات وبروايات مختلفة فى المصادر المصرية بتفصيل دقيق وبأكثر من صورة وعلى آثار متعددة ، كما حظيت هذه المعركة أكثر من غيرها بإهتمام العديد من الباحثين فى أحداث التاريخ المصرى القديم .. والمصادر التى تناولت هذه المعركة هى كالتالى :-

١ – القصيدة : وهى ملحمة شعرية كتبها الناسخ « بنتاؤور » ، وقد تناول فيها تفاصيل المعركة ، وهى تمجيد لشخص « رمسيس الثانى » وشجاعته حيث نسبت إليه الانتصار فى المعركة ، وقد سجلت على جدران معابد أبيدوس والأقصر والكرنك والرمسيوم ، كما كتبت على بردية رايفيه الموجودة بمتحف اللوفر وبردية ساليه الثالثة وظهر بردية شيستر بيتى الثالثة الموجودتان بالمتحف البريطانى .

٢ – التقرير : وهو ما نقش بجوار المناظر المصورة للمعركة ويحتوى على معلومات أدق من التى جاء ذكرها بالقصيدة.

٣ – خطاب عثر عليه فى بوغازكوى : وهو من " رمسيس الثانى " إلى " خاتوسيل الثالث " ملك الحيثيين وبه وصف للمعركة.

٤ – مناظر المعركة والنصوص المصاحبة لها : صورت هذه المعركة على الوجه الخارجى للجدار الجنوبى لبهو الأعمدة بالكرنك ، وعلى الوجه الخارجى للجدار الغربى بين الصروح الثامن والتاسع والعاشر بنفس المعبد ، وفى معبد الرمسيوم بغربى طيبة ، وفى معبد " رمسيس الثانى " بأبيدوس ، وعلى الجدار الشمالى للصالة الكبيرة بمعبد أبوسمبل الكبير ، وعلى صرح " رمسيس الثانى " بمعبد الأقصر ، كذلك صورت على الوجه الخارجى للجدار الغربى بصالة المواكب بنفس المعبد.

وفى خريف العام الخامس من حكمه عام ١٢٧٤ ق. م تقريباً ، قام الفرعون " رمسيس الثانى " بحملته الحربية الشهيرة ضد الحيثيين بقصد السيطرة على سوريا. ولقد عمل الحيثيون بقيادة ملكهم " مواتلى " على استعادة آمورو من مصر وحماية قادش وما حولها وذلك بتوجيه ضربة قاسية لمصر تمنعها بعد ذلك من تهديد الأملاك الحيثية فى سوريا .. ولقد أعتبر المؤرخ الشهير " جيمس هنرى برستد " J.H. Breasted معركة قادش أول معركة فى التاريخ أتبعت أساليب وتكتيكات الحرب الحديثة من كل من الجانبين المصرى والحيثى ، كما تمتعت معركة قادش بأهمية بالغة ، باعتبارها نقطة تحول فى الموقف السياسى الجديد فى الشرق الأدنى ، وقمة للفن الحربى فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد .. وقد كانت القوات العسكرية التى أستخدمت فى معركة قادش كبيرة العدد ، بحيث تعطينا شعوراً وتصوراً لما سبق المعركة من تعبئة وطنية فى كل من الجانبين المتحاربين. وشاركت فى المعركة عشرون ولاية على الأقل من الولايات والحاميات التابعة للحيثيين فى مناطق آسيا الصغرى وعلى سواحل البحر الأيونى ، وكانت قواتها جميعا تحت قيادة " مواتلى " ملك الحيثيين. وتقدر المصادر المصرية الموجة الأولى من الهجوم الذى شنه سلاح المركبات الحربية لجيش الحيثيين بأنه قد شاركت فيها ألفان وخمسمائة مركبة حيثية ، كما اشتركت فى الموجة الثانية ألف مركبة حيثية.

ومما لا شك فيه أن تسجيل معركة قادش عدة مرات فى المصادر المصرية كان انعكاساً للأهمية التى كان ينظر بها المصريون إلى أهدافها الاستراتيجية. فقد كانت المشكلة الكبرى المتعلقة بإحياء الإمبراطورية المصرية فى آسيا ، والتى تأجلت رغم إرادة المصريين منذ أزمة العمارنة ، لا يمكن أن تحل – فى نظر حكام مصر العسكريين – إلا عن طريق حشد الامكانات القومية المصرية على نحو هجومى. ولذلك فقد كان هدف الخطة المصرية هو القضاء على قوة الحيثيين بهجوم مفاجئ ، يتم فيه الاستيلاء على قادش ، وهى المركز الاستراتيجى بالقرب من مخرج وادى البقاع بين لبنان وسوريا. وتدل على ذلك السرعة الهائلة التى تقدمت بها الجيوش المصرية ، حيث وصلت إلى التلال المشرفة على قادش بعد شهر واحد من عبورها حدود مصر الشرقية. ولقد كانت الخطط الاستراتيجية المصرية دقيقة بصفة عامة فى خطوطها العريضة ، حتى من وجهة نظر الفكرى العسكرى الحديث ، فلم يكن هناك بديل آخر للتقدم الاستراتيجى إلى ميدان المعركة ، حيث كان على الجيش المصرى أن يجتاز وادى البقاع ، ليتجنب الطريق الساحلى الضيق الذى تعترضه مصبات الأنهار على طول الشاطئ الفينيقى.

بدأ كل من المصريين والحيثيين الاستعداد الضخم للصدام المحتوم بينهما ، فقد قام « مواتلى » ملك الحيثيين بتجنيد كل من استطاع من رجال دولته ، حيث تذكر النصوص المصرية أنه : « لم يترك بلداً أجنبياً واحداً ، دون أن يحضر ذلك البلد البعيد ومعهم رؤساءهم ، ومعه كل رجال مشاته ، وكانت عرباتهم كثيرة جداً وبدون حصر ، وقد غطوا الجبال والوديان بسبب كثرتهم ، وكأنهم جراد » ، كما ذكرت النصوص المصرية كذلك عن استعدادات الملك الحيثى لهذه المعركة أنه : « لم يترك فضة فى بلده ، فقد سلبها كل ممتلكاتها ، وأعطاها لكل البلاد الأجنبية ليأتى بهم معه إلى القتال » .. وفى الجانب الآخر ، لم تكن استعدادات الملك « رمسيس الثانى » بأقل من منافسه الحيثى ، ويبدو كذلك أنه قد أحتاج إلى نفقات كبيرة ، وقد تكون الجيش المصرى من عشرين ألف مقاتل ، ونظمت القوات المصرية فى أربعة فرق أو فيالق ، هم آمون ورع وبتاح وست ، فمن طيبة أتى فيلق آمون ، ومن هليوبوليس والدلتا أتى فيلق رع ، ومن منف ومصر الوسطى أتى فيلق بتاح ، ومن بر رعمسيس أتى فيلق ست ، ويرى بعض المؤرخين أن الملك « رمسيس الثانى » قد فرض التجنيد الإجبارى على رعاياه فى فلسطين. وتذكر النصوص المصرية عن استعدادات الفرعون

للمعركة : « لقد جهز جلالته مشاته ومركباته الحربية والشردان أسرى جلالته الذين أحضرهم بانتصار ذراعه القوى ، مجهزين بكل أسلحتهم ، وقد أعطيت لهم خطة القتال » .. وهكذا فقد عبأ الملك « رمسيس الثانى » جيوشه وتقدم بها لسحق جيوش الحيثيين الذين قد ألبوا الكثير من سكان سوريا ضد مصر ، وقد تجمع أعداء الفرعون من جيوش الحيثيين وحلفائهم فى مدينة قادش السورية الواقعة بمرتفع مكان تل نبى مند الحالى على الشاطئ الأيسر لنهر العاصى ، وأتخذوا منها مركزاً لعملياتهم الحربية ، وهى المدينة الحصينة ذات الموقع الطبيعى والاستراتيجى المهم ، إذ تقع بين ثلاثة فروع مائية ، كما أنها تشرف على وادى النهر الكبير وتتحكم فى مدخل وادى البقاع ، وقد عرفت منذ أيام الفرعون المحارب « تحوتمس الثالث » بأنها بوابة سوريا الشمالية وما يليها.

وسار الملك « رمسيس الثانى » على رأس جيشه من قلعة ثارو الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية ، وكما ذكرنا فقد قسمت قواته إلى أربعة فيالق آمون ورع وبتاح وست ، وقد كان فيلق آمون تحت قيادة الملك « رمسيس الثانى » نفسه. وكان فى المقدمة فيلق آمون يليه ببضعة أميال فيلق رع ، ويليه فيلق بتاح ، أما فيلق ست فلقد كان بعيداً فى مؤخرة الجيش. وقامت الخطة العسكرية المصرية على أساس أن يقود الفرعون بنفسه الجزء الأساسى من الجيش عن طريق البر إلى كنعان ثم جنوب سوريا حتى يصل إلى قادش ، بينما تسلك القوات المعاونة طريق الساحل الفينيقى ثم تنحرف للداخل شرقاً لتلتحم بالقوات الرئيسة بقيادة الفرعون فى قادش ، على أن يكون وصولها فى نفس اليوم الذى تصل فيه القوات الأساسية. وأتجه الجيش المصرى من مصر إلى غزة حيث عبر كنعان ثم صعد فى طريق الجليل وأتجه إلى الممرات التى تخترق وادى البقاع.

وفى طريق القوات المصرية إلى المعركة قبض رجال الجيش المصرى على رجلين من بدو الشاسو ذكرا أنهما كانا مع ملك الحيثيين وأرادا أن يخدعا الفرعون ، ومن ثم فمن خلال استجوابهما على يد رجال الجيش المصرى أخبرا الملك « رمسيس الثانى » بأن جيش الحيثيين لايزال بعيداً عن قادش فى الشمال عند منطقة حلب وعن مواقع القوات المصرية ، وأنه يخشى الزحف ناحية الجنوب خوفاً من الفرعون والجيش المصرى ، وقالا أيضا بأن جيش العدو يقوم بالانسحاب من أرض المعركة .. وفى الواقع فإن هذين البدويين لم يكونا غير جاسوسين ،

تسببا فى ايقاع الفرعون فى خطأ عسكرى فادح ، حيث أنه نتيجة لتصديقه لكلامهما أندفع بكل سرعة بعرباته وقواته إلى الأمام ، تاركاً ورائه معظم قواته الثقيلة. وبعد أن صدق الفرعون ما قاله الأسيران ، أسرع بأجتياز المخاضة ثم عبر السهل المؤدى إلى قادش ، تتبعه عن قرب فرقة آمون ، حيث عسكر فى شمال غرب قادش.

وأثناء انتظار الفرعون لوصول فرق الجيش الثلاث الأخرى ، تمكنت إحدى الدوريات المصرية من القبض على جاسوسين من الحيثيين ، أخبرا الفرعون بأن الملك الحيثى وحلفائه متواجدون على مبعدة ميلين منه خلف قادش وعلى أهبة الاستعداد لقتاله ، وحسب هذه المعلومات الجديدة فقد غير الفرعون من خطته العسكرية فأرسل يستدعى فرقة بتاح بسرعة وهى كانت لاتزال لم تعبر نهر العاصى ، بينما كانت فرقة رع فى طريقها للمعسكر.

وفجأة تعرضت القوات المصرية إلى كمين أحكم تدبيره ، ووجه الحيثيون إلى فرقة رع ضربة أصابتها فى الصميم وقاموا بهجوم مفاجئ ضدها ، حتى كاد أن ينتشر الرعب فى قلوب المصريين ، وأن تشاع روح الهزيمة بينهم ، وقد أصبح الملك « رمسيس الثانى » محصوراً بين الجنود الحيثيين .. ويبدو أن « مواتلى » ملك الحيثيين كان ينوى القضاء على الخطوط الخلفية للجيش المصرى ، وبعد أن عبر بسرية تامة الشاطئ الشرقى لنهر العاصى ، أتجه نحو الجنوب ، حيث كان « رمسيس الثانى » يتقدم فى اتجاه الشمال بمحاذاة الشاطئ الغربى ، وعندما أقترب الفرعون من قادش مع قواته الأمامية ، قطعت عليه قوات العدو الطريق عن بقية قواته الثقيلة ، وكانت القوات الحيثية أكثر عدداً وعتاداً عندما عبرت نهر العاصى ، وكانت تحت قيادة شقيق ملك الحيثيين ، وهكذا أصبح هناك حائل بين « رمسيس الثانى » وقواته الثقيلة .. ولم يكن أمام القوات المصرية وقت كاف لكى يغيروا من خططهم ويعودوا أدراجهم ، فقد كان العدو بينهم ، وأنسحبت قوات المشاة بسرعة ، ووقعت مركبات الملك الحربية وقوات الحرس الملكى فى الشرك وأصبحت منعزلة تماماً ، وقد حدث الاضطراب والبلبلة فى صفوف الجيش المصرى. وكانت الكارثة الحقيقية تتمثل فى حصار القوات الحيثية للملك « رمسيس الثانى » وقوات حرسه من جميع النواحى ، وقد تكونت قوات الحيثيين من المركبات الحربية.

كان عدم مقدرة قوات الاستطلاع والتجسس المصرية على تحديد مواقع العدو تحديداً دقيقاً أمراً لا يمكن مغفرته ولا يمكن تفسيره ، حتى فى ضوء الثقة البالغة بالنفس التى كان يشعر بها الفرعون الشاب « رمسيس الثانى ». وحتى المعلومات التى أنتزعت من الجاسوسين الحيثيين عن المواقع الجديدة للقوات الحيثية وحلفائها فى قادش ، فقد أمكن الحصول عليها فقط بعد أن عبرت فرقة آمون بقيادة « رمسيس الثانى » مخاضة نهر العاصى ، وعسكرت على مسافة بضعة كيلومترات إلى الشمال الغربى من قادش حيث تتمركز القوات الحيثية الضاربة ، وكان الوقت متأخراً جداً بكل المعايير بالنسبة للجيش المصرى لأن يدخل أى تعديلات على مواقع فرقه. ولذلك فقد شن الحيثيون أول موجة قوية من الهجوم بواسطة المركبات الحربية فى اتجاه الجنوب على فرقة رع وهى تتقدم شمالاً وأثناء عبورها نهر شبتونا .. وهذا الهجوم الخطير الغير متوقع كان من الممكن أن ينتهى بكارثة للجيش المصرى ، لولا ثلاثة عوامل منعت تعرض الموقف العسكرى المصرى للتدهور الكامل. أول هذه العوامل كان ذا طبيعة إستراتيجية ، حيث أن فرقتى بتاح وست اللتين كانتا تضمان نصف القوة الضاربة للجيش المصرى ، كانتا لا تزالان فى طريقهما نحو مسرح العمليات الحربية. وفور وصول المعلومات الصحيحة عن المواقع الحقيقية لقوات الحيثيين إلى القيادة العامة للقوات المصرية حين كانت فى منطقة الشمال الغربى من قادش ، أرسل « رمسيس الثانى » وزيره على عجل إلى الجنوب لتنظيم تدخل هاتين الفرقتين فى القتال. وهكذا فإن ما بدا فى أول الأمر كخسارة تكتيكية للجيش المصرى ، نتيجة لغياب فرقتى بتاح وست عن أرض المعركة ، لم يلبث أن ثبت أنه كان ميزة إستراتيجية حاسمة. ومن الواضح أن ملك الحيثيين الماهر قد أدرك أنه ليس فى موقف يمكنه من استخدام كل قوته الضاربة فى الموجة الأولى من الهجوم ضد فرقة رع على طول نهر العاصى. ولذلك فعندما شاهد الموقف الاستراتيجى للجيش المصرى وقواته الاحتياطية الجديدة الضخمة فى الجنوب ، لم يستطع أن يهجم بكل مركباته الحربية ، واضطر إلى ابقاء احتياطيه خارج المعركة. ثم قام ملك الحيثيين باستخدام هذا الاحتياطى من المركبات الحربية فى هجومه الثانى ، عندما بدأ الهجوم المضاد المنظم لـ « رمسيس الثانى » ضد الجناح الشرقى الهزيل للمركبات الحربية المعادية على طول النهر يأتى بنتائج حاسمة. ولكن بعد الالقاء بكل قوات الاحتياطى من المركبات الحيثية فى القتال الفعلى ، وبعد وصول فرقة بتاح إلى ميدان القتال فى

نفس ليلة المعركة ، أدرك « مواتلى » بوضوح أنه فقد آخر فرصة فى إحراز نصر حاسم ، ولذلك فقد أمر بسحب مركباته الحربية إلى مدينة قادش.

أما العامل الثانى الذى أخل بالخطط التكتيكية للحيثيين ، فكان وصول التعزيزات ، التى ربما كانت قد نقلت بطريق البحر وهبطت على ساحل آمورو ، وهى نجدة من فرقة « نعرين » التى وصلت إلى ميدان المعركة تحت إمرة ضباط مصريين ، قادمة من الشمال ، وشاركت فوراً فى الهجوم المصرى المضاد الذى قاده « رمسيس الثانى » بنفسه ، مما أدى إلى منع المركبات الحيثية من الاستفادة بنصرها المؤقت الذى أحرزته فى الهجوم الأول على فرقة رع. ولا شك أن ظهور هذه القوات الجديدة قد ساهم على نحو كبير فى رفع معنويات القوات المصرية بصفة عامة ، وقوات فرقة رع بصفة خاصة ، الأمر الذى مكن ضباط هاتين الفرقتين من إنجاز المهمة العسيرة الخاصة بإعادة تنظيم طوابيرهم المشتتة.

وكان العامل الثالث الذى ساهم فى تخفيف حدة الهجوم التكتيكى المفاجئ للقوات الحيثية ، يتمثل فى الطريقة التى تصرفت بها القيادة المصرية العامة والفرعون « رمسيس الثانى ». فقد أبدى « رمسيس الثانى » وقواته بسالة نادرة فى اقتحام جيش العدو ، مع التوقيت الدقيق لشن الهجوم المضاد على الطابور الهزيل من المركبات الحربية الحيثية على طول نهر العاصى ، بدلاً من مواجهة جيش العدو المحتشد على الضفة الغربية ، مما أعطى القوات المصرية المقاتلة فى الشمال ، وفرقة بتاح فى الجنوب ، الوقت الكافى والملائم للتدخل فى المعركة .. ومما لا شك فيه أن رد فعل « رمسيس الثانى » الفورى والسريع حيال هذا الموقف ينم عن حدة بصيرته وبسالته النادرة التى لا جدال فيها مطلقاً ، فقد قام الفرعون على الفور باستدعاء أركان حربه حتى يتدبر ويتفحص بشأن تلك الكارثة وشيكة الوقوع. وبالتأكيد ، لم تكن هذه هى اللحظة المناسبة لكى يبين الفرعون ذلك الاهمال الجسيم من جهاز مخابراته ، خاصة أن مجلس الحرب هذا كان يعلم تماماً بدلائل القصور والعجز هذه ، والتى تعتبر قانوناً بمثابة جريمة خيانة عظمى. ومن ثم ، فقد سارع الفرعون بإرسال الوزير الأعلى وبرفقته الأمير « با رع حر ونم إف » الشجاع الأول بالجيش ورئيس الاسطبلات الملكية وبعض المراسلين إلى شبتونا من أجل استعجال فرقة بتاح وحثها على القدوم سريعاً.

وإذا عدنا مرة أخرى للحديث عن أحداث المعركة ، فسوف نجد أنه كان من نتيجة الهجوم الذى شنه الحيثيون أن دخلت قوات العدو إلى معسكر الفرعون ، وتوضح مناظر المعركة التى سجلها فنانو الملك « رمسيس الثانى » أن قوات الحرس الملكى المكونة من المشاة الثقيلة ، والتى كانت معسكرة حول المعسكر ، قد تصدت بضراوة وقوة لهجوم المركبات الحربية الحيثية. وقد أدى هذا التصدى الذى قامت به قوات الحرس الملكى إلى نجاة الملك « رمسيس الثانى » من الموت المحقق والتجائه إلى خطوطه الجنوبية مع قوات الحرس الملكى التى كانت بجانبه فى هذه اللحظات الحرجة. ويبدو أن جنود فرقة رع الفارين من هجوم الحيثيين قد أندفعوا فى حالة تخبط شديدة نحو معسكر الفرعون المحاط بفرقة آمون ، حيث كان مجلس الحرب المحدود الذى كان الفرعون قد استدعاه سريعاً قد أختتم لتوه ، وفوجئ الملك « رمسيس الثانى » بهذا الهجوم على معسكره ، فعمل على إبعاد أسرته إلى مكان آمن ، وتمكن من جمع أفراد حرسه المقربين ، ورئيس حظائر جياده « منا » الذى سارع بتجهيز مركبة الفرعون الحربية ، لكى ينطلق الفرعون فى قلب الصراع الدامى ، فى لحظة خاطفة ، تكاد تكون معجزة.

كان على « رمسيس الثانى » أن يواجه وحده مع قوات حرسه العدو وقد أوشك الحيثيون أن ينتصروا ، بعد أن دفعوا بالقوات المصرية نحو جبهة جديدة كانت مهددة من الخلف بواسطة الحامية التى كانت تقطن فى قادش ، وبعد أن أصبح « رمسيس الثانى » معزولاً فى اليسار بواسطة النهر. وعلى قمة الجبال المواجهة له كان يوجد ملك الحيثيين يراقب مسار القتال ، وكانت فرصة النجاة الوحيدة أمام « رمسيس الثانى » أن يتبع الطريق الذى يوازى النهر ، ويحاول أن يمهد له ثغرة بين صفوف الأعداء .. وفى هذه اللحظة أظهر « رمسيس الثانى » للملأ عظمته الحقيقية ، إذ أنتهز فرصة جشع جنود العدو فى السلب والنهب ، وقبض على ناصية الموقف وهجم على جنود العدو الذين حاصروه فى معسكره – ولم يكن معه إلا حرسه – فى أضعف نقطة بشدة وبأس وعنف بالغين حتى أنه قذف بهم فى النهر ، وأمكنه قطع طريقه سريعاً إلى خطوطه الجنوبية وربط خطوطه فيما بعد.

وقد استطاع الفرعون بمعونة حرسه أن يشن على الحيثيين تلك الغارة الساحقة التى خلد ذكرها المصريون فيما بعد فى ملحمة رائعة ، ولابد أن « رمسيس الثانى » كان يبدو عظيماً وهو يهاجم أعدائه وهو فى مركبته الحربية ، وقوسه الكبير يرسل السهم تلو الآخر إليهم نحو

قلوب أعدائه ، فتصف نصوص ملحمة قادش الفرعون بأنه : « بطل بغير مثيل ، ذراعاه قويتان وقلبه جسور ، جميل الصورة مثل آتوم .. منتصر فى كل الأراضى ، لا يستطيع أحد أن يرفع سلاحه ضده ، وهو حافظ لجنده ودرع لهم يوم القتال ، وهو حامل قوس لا نظير له وهو أقوى من مئات الألوف مجتمعين .. لا يستطيع ألف رجل أن يقفوا أمامه ، ويصيب الاغماء منه الالاف حين يتطلعون نحوه ، وهو يبعث الرعب حيث يصرخ عالياً ، إنه يجعل قلوب الأجانب تهن كما يفعل الأسد المتوحش فى وديان الصحارى .. إنه هو الذى ينقذ جيشه ويحمى حرسه ويخلص جيوشه .. قلبه كجبل من التبر .. إنه الملك رمسيس » .. كما وصفت نصوص « رمسيس الثانى » هجوم الفرعون على الحيثيين بأسلوب ملحمى ممتع كما يلى : « عندئذ ظهر جلالته شبيهاً بأبيه مونتو ، وأمسك بأسلحته ، وارتدى زيه الحربى ، مثل المعبود بعل فى ثورة عنيفة ، وكانت المركبة الحربية التى تحمل اسم نصر فى طيبة قد جاءت من اسطبل ملكى كبير .. واندفع جلالته واخترق صفوف هؤلاء الحيثيين الجبناء ، وكان وحيداً بالفعل ، ولم يكن معه أحد ، وعندما ألقى نظرة خلفه ، رأى أن ألفين وخمسمائة مركبة حربية قد سدت عليه كل مخرج ، مع كل محاربى بلاد الحيثيين التعساء وأيضاً عدداً من القوات من البلاد المتحالفة ... ولم يكن معى أى ضابط ، أو قائد مركبة ، أو أحد أفراد القوات ، فقوات مشاتى ومركباتى وقعوا ضحية لهروبهم ، ولم يمكث منهم أحد لكى يقاوم الحيثيين .. (ونياديت) آمون ، أبى ماذا يجرى إذن ؟! ، إنه لا ينسى فى ذلك الوقت ولده ، ماذا أنا فاعل بدونك ؟! ... إنها تفوق قوة سيد مصر ، كيف يسمح للبربر أن يدنسوا أرضه ؟! ، ما قيمة هؤلاء الأسيويين بالنسبة لك ، آمون ، إن هؤلاء التعساء لا يعرفون معبوداً ، ألم أشيد لك العديد من الآثار ؟! ، ألم أملأ معبدك بأسراى ؟! ... إننى أناديك يا والدى آمون ، إننى وسط جحافل بربر لا أعرفهم ، إن (قوات) كل البلاد قد اتحدت ضدى وأنا وحيد بمفردى ، بدون أى مخلوق معى ، لقد تركنى معظم جنودى ولم يتجه أحد منهم بنظره نحوى .. وإذا ناديتهم ، لا يستطيع أحدهم أن يسمعنى ، ولهذا أناديك ، لأننى أعرف أن (قوة) آمون تفوق مليون جندى ... وإذا كنت هناك ، فإنه بناء على أمر شفتيك يا آمون ولم أشك فى مشيئتك ، ومن هنا ، من حدود بلاد البربر ، إننى أتوجه إليك بدعائى ، إن صوتى يصل حتى أرمنت ، إننى أرى آمون .. إنه لبى ندائى ، إنه يبسط يده نحوى ، إنه معى ، الفرحة تتملكنى ، إنه خلفى ، إلى الأمام إننى معك ، أنا والدك ، يدى معك ،

إننى أكثر نفعاً من مئات الألوف .. إننى سيد النصر وإننى أحب الشجاعة ، (وهنا) تملكتنى الشجاعة مرة أخرى .. وأصبح قلبى سعيداً وكل الجهود قد كللت بالنجاح ، وأجد نفسى شبيهاً بمونتو ، وأطلق السهام على يمينى وأوثق الأسرى على يسارى ، إننى أمامهم مثل بعل فى ثورة غضبه ".

ولستة مرات متتالية استطاع " رمسيس الثانى " القيام بهجوم مضاد بقدرات قتالية هائلة تفوق كل وصف ، وقد تشتتت صفوف الأعداء فى طريقه ، واستطاع أن يثبت فى ميدان القتال بشجاعته الشخصية حتى وصلت إليه نجدة أشارت إليها نصوصه بالمدد ، مما جعل كفة ميزان المعركة تميل إلى جانب المصريين ، حيث انبثقت من الناحية الغربية متجهة نحو المعسكر الملكى فرقة " نعرين " العسكرية القادمة من بلاد آمورو ، والتى سرعان ما انقضت على المركبات الحربية الحيثية المعادية الملتفة حول الفرعون وأحاطوا بها كالكماشة. وقد تمكنوا من تخليص الفرعون المتأجج ثورة واندفاعاً ، بعد أن كان على وشك الغرق بين أعدادها الهائلة ، وبنفس الأسلوب تم تحرير جزء من المعسكر الذى كان قد تعرض فعلا للسلب والنهب من جانب الأعداء .. ولقد بدأ سلاح المركبات الحربية المصرية بقيادة الفرعون فى مطاردة الأعداء بمساعدة النعرين البواسل ، وعمل على تجميع العناصر المشتتة من فرقة رع ، التى سرعان ما أنضمت إليها فرقة بتاح التى وصلت أخيراً بقيادة الوزير الأعلى. وقد أوضحت مناظر المعركة المسجلة على جدران المعابد المصرية روعة وقوة الهجوم الظافر للمركبات الحربية المصرية بقيادة الفرعون ضد مركبات الحيثيين التى أرغمت على التقهقر حتى جنوب قادش.

وأصبح من الواضح أن موقف المعركة قد أنقلب رأساً على عقب وأن ريح المعركة قد بدت فى صالح المصريين ، فقد أصبحت المركبات الحربية الحيثية فى حالة رهيبة من التخبط والتشتت والفوضى وهى تحاول تخطى المعبر النهرى ، وقد قذف بعرباتهم وجيادهم ومقاتليهم فى أعماق النهر ولقى الكثير منهم حتفه غرقاً ، فقد كان الهجوم المصرى عنيفاً وغير متوقع لدرجة أن القوات المصرية استطاعت اختراق صفوف العدو بعد أن قتلوا الكثير منهم ومن كبار قادتهم الذين أشارت إليهم نصوص الفرعون ، ومن بينهم شقيق ملك الحيثيين الذى صورت مناظر المعركة جثته وهى تطفو على صفحة مياه نهر العاصى ، كما صورت المناظر أمير

مدينة حلب الموالى للحيثيين الذى انتشله رجاله فى الوقت المناسب من مياه النهر قبل الموت غرقاً .. وعندما عبر الملك « رمسيس الثانى » الضفة الأخرى وجد نفسه فى أرض مكشوفة ، وأمكنه أن يربط بين المشاة الذين فروا فى الهجوم الأول وعادوا لمؤازرته مرة أخرى ، على حين كان الأعداء ينقلون قتلاهم وجرحاهم ويقومون بالعناية ببعضهم. وفى هذه اللحظة كان الجزء الأكبر من الجيش المصرى قد وصل إلى أرض المعركة ، مما شجع « رمسيس الثانى » على شن هجوم حاسم على صفوف الأعداء المضطربة ، إذ منع الملك الحيثى « مواتلى » وقواته الحيثية الاحتياطية المرابطة على شاطئ النهر من التقدم لمساعدة إخوانهم .. ويبدو أن نجاح الهجوم المصرى المضاد عبر مخاضة نهر العاصى ، انما يرجع بصفة أساسية إلى خفة المركبات الحربية المصرية ، بالمقارنة بثقل المركبات الحربية الحيثية. فالمركبات المصرية الخفيفة ، كانت مزودة فقط باثنين من المقاتلين ، فى حين أن كل مركبة حيثية كانت تحمل ثلاثة محاربين ، مما جعل المركبات الحربية المصرية قادرة على المناورة السريعة.

وطبقاً للمصادر المصرية ، فقد طلب الحيثيون الهدنة فى اليوم التالى للمعركة. ومن الممكن أن يكون ذلك صحيحاً فى ضوء النتائج العامة العاجلة التى أسفر عنها القتال ، فإن الخسائر الجسيمة على الجانبين ، بالإضافة إلى الموقف العام للقوات ، لابد أن تكون قد أقنعت كلا من « مواتلى » و« رمسيس الثانى » بأنه من المستحيل تحقيق أى هدف استراتيجى حاسم .. ومما لا شك فيه أن قبول ما زعمته ألواح بوغازكوى حيث عاصمة الحيثيين عن هزيمة المصريين أمراً ليس منطقياً بالمرة ، فالمصادر المصرية تشير إلى وصول رسالة من « مواتلى » يطلب فيها السلام ، ولم يتم انسحاب الجيش المصرى إلا بعد مفاوضات أعقبت المعركة.

وفى منطقة أوبى بالقرب من دمشق ، أعيد تنظيم القوات المصرية قبل أن تبدأ رحيلها عائدة إلى مصر .. حقاً لم ينجح المصريون فى إحراز نصر حاسم ، ولكن الحيثيون أيضا أدركوا أنهم يواجهون طموحات مصرية جديدة لانشاء إمبراطورية مصرية فى آسيا ، كما أدركوا تماماً أن السياسة المتخاذلة أثناء فترة العمارنة قد ولت ، وحل محلها سياسة مصرية ذات طابع هجومى .. ومهما يكن من أمر ، فإن النتائج السياسية للمعركة لم تكن فى مستوى النصر العسكرى ، حتى أن الحدود بين الدولتين بقيت فى موقعها عند نهر الكلب ، كما كانت قبل المعركة.

ويمكننا القول أن الفرعون « رمسيس الثانى » قد نجح إلى حد ما فى القضاء على حدة شوكة الحيثيين ، الذين كانوا قد كونوا تحالفاً من عشرين شعباً ، وكان على الجيش المصرى أن يواجه هذه الشعوب المتحالفة معاً. ولولا حسن تصرف الفرعون وبعض قادة الجيش المصرى معه لأوشكت الهزيمة أن تحل بالقوات المصرية ، والتى كانت ستصبح لا نظير لها ، وكان كل ما فعله الفرعون هو قد أنه نجح فى اختراق صفوف أعدائه وتكبيدهم خسائر بشرية وعسكرية فادحة ، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء على قادش أو فى تدمير الجيش الحيثى تدميراً نهائياً ساحقاً ، بل كانت الخسائر فادحة على الجانبين .. وبعد ذلك عاد « رمسيس الثانى » بجيشه إلى مصر دون أن ينجح فى طرد الحيثيين من قادش ، ومن المؤكد فى الوقت ذاته أن ما حققه فى المعركة يعد نصراً كبيراً له ، ويحق له ذلك لأنه أبدى شجاعة نادرة فى القتال والصمود.

إعادة غزو سوريا وكنعان ..

فى السنوات الحاسمة التى أعقبت معركة قادش كان على « رمسيس الثانى » أن يعيد تقييم رؤيته الاستراتيجية للمناطق الخاضعة لنفوذ إمبراطوريته الأسيوية ، ففى ذلك الوقت كانت سحب الاضطرابات تتكثف على الجبهة السورية بشكل ملحوظ. فقد أدى انسحاب « رمسيس الثانى » من قادش ، وخروج أوبى من قبضته بدون أن يظهر من الفرعون أى رد فعل مناسب بالإضافة إلى عدم عودة الفرعون إلى سوريا فى حملة صيفية فى ذلك العام ، كل هذه العوامل أدت إلى اعتقاد كنعان بأن ذلك دليل ضعف ، فبدأ حكام كنعان يتغاضون عن دفع الجزية لجباتها من المصريين. وفى نفس الوقت كانت هناك ممالك فتية قد بدأت فى الظهور ، منها مملكة مؤاب التى تلى البحر الميت ، ومملكة إدوم جنوبها مباشرة .. ومن ثم فقد أولى الفرعون المناطق الشرقية من بلاد كنعان فى شرق وجنوب البحر الميت اهتماماً بالغاً ، وقد ترائى له أن شعوب مؤاب وإدوم يشعرون بهويتهم القومية الخاصة ، ويجنحون إلى نبذ الوصاية المصرية. ومن جهة أخرى بدأت قبائل بدو الشاسو فى الاغارة على قلب كنعان .. وخلاصة ذلك كله أن جبهة سوريا قد شهدت فى هذه الفترة اضطرابات خطيرة لم تشهد مثلها منذ عشرين عاماً أى منذ أيام « سيتى الأول » ، ومن ثم فقد أصبح هناك ضرورة قصوى بالنسبة للفرعون تحتم عليه

قمع المقاومة فى هذه المناطق القريبة للغاية من الحدود المصرية ، والتى يبدو أن الحيثيين كانوا يقومون بالتحريض ضد مصر هناك.

وفى الربيع الواقع بين العامين السابع والثامن من حكم الملك « رمسيس الثانى » (١٢٧٢ ق. م) ، قام الفرعون بحملة على سوريا تمكن خلالها من إخضاع كنعان ، ثم اتجه شمالاً حتى كوميدى حيث تمكن من استرداد مستعمرة أوبى وأعادها إلى السيادة المصرية .. ومن خلال هذه الحملة وصل الفرعون بقواته إلى غزة بسرعة ، ثم قام بتقسيم جيشه إلى قوتين انطلقتا من منطقة تلال النقب ، كانت الأولى تحت قيادته الشخصية بينما كانت الثانية تحت قيادة ولده الأمير « آمون حر خبش إف ». واستطاع « آمون حر خبش إف » تحقيق النصر على بدو الشاسو وأسر عدد منهم ، كما تمكن من التوغل فى مناطق النقب والبحر الميت والاستيلاء على إدوم ومؤاب ، بينما قامت الفرقة التى يقودها الملك « رمسيس الثانى » بعبور قلب كنعان غرب البحر الميت ليصل إلى أطرافه الشمالية بعد الهجوم على أورشليم (القدس) وأريحا ، ثم هبط شرق البحر الميت بالأردن الحالية وأستولى على مدينة ديبون ، وأخذ الفرعون يتقدم جنوباً حتى تحقق لقاؤه مع فرقة ولده فى مؤاب .. وعاد الجيش المصرى بعد أن قام بالتوحد مرة أخرى تحت قيادة الفرعون إلى السير نحو مناطق دمشق وكوميدى دون مجابهة أو مقاومة تذكر ، وتمكن من استرداد مستعمرة أوبى التى كان قد فقدها عقب معركة قادش كما أشرنا من قبل.

وفى أواخر العام الثامن من حكمه وخلال العام التاسع واصل « رمسيس الثانى » حملاته الحربية المظفرة فى سوريا ، فبعد أن قام بالقضاء على آخر جيوب المقاومة فى شمال كنعان ، وسيطر على الخارجين فى تلال الجليل (ماروم وبيت عنات) ، تمكن من السيطرة على ميناء عكا ومنه واصل التقدم بالجيش المصرى على امتداد ساحل فينيقيا الجنوبى شمالاً إلى صور وطرابلس وصيدا وبيروت وجبيل وأولازا وعرقاتا ثم سيميرا ، وقد نجح الفرعون كذلك فى استعادة عسقلون وعدة مدن كنعانية أخرى ، وجميعها كانت من قبل قد تمردت وثارت ضد النفوذ والسيادة المصرية .. ثم واصل الفرعون تقدمه وأسرع بفرض الحصار على آمورو وقادش ، وأتخذ طريقه إلى الشرق ثم توغل إلى الداخل عبر وادى الاوليثيروس هابطاً شمالاً إلى وادى نهر العاصى ، وبذلك يكون « رمسيس الثانى » قد توغل فى أراضى يسيطر عليها

الحيثيون ، لم تطأها قدم الجيش المصرى منذ مائة وعشرون عاماً ، أى خلال عهد الفرعون المحارب العظيم « تحوتمس الثالث ».

وكانت أعظم انتصارات الفرعون التى حققها فى أواخر العام الثامن من حكمه يتمثل فى الاستيلاء على مدينة دابور الحيثية الواقعة على حدود آمورو الشمالية بجنوب حلب بأراضى تونيب ، بالإضافة إلى استيلاؤه على عدة قلاع حصينة لمدن سورية كثيرة قابلها فى طريقه ، حيث مثلت ثمانى عشرة من تلك المدن المنهزمة فوق جدران الواجهة الغربية للصرح الأول لمعبد الرمسيوم بغربى طيبة .. ولقد كانت دابور واحدة من المدن الاستراتيجية الهامة الشديدة التحصين ، وكان موقعها فى شمال غرب قادش جعلها بمثابة الحصن الحصين فى المنطقة ، وكان الاستيلاء عليها يعنى قدرته على التقدم شمالاً لمهاجمة الحيثيين وتأكيد نجاحه فى إعادة غزو سوريا. وبامتلاك مجرى نهر العاصى الأوسط أمل « رمسيس الثانى » أن يتمكن من تضييق الخناق على شمال سوريا الواقع تحت سيطرة الحيثيين ، فقد شطرت آمورو وعزلت عن قادش واستحال عليهما الاتصال بالحيثيين وحكامهم فى حلب شمالاً ، أو قرقميش وبلاد خيتا فى آسيا الصغرى. وحقق رأس الجسر هذا الذى صنعه الفرعون نصراً مؤقتاً له على آمورو وقادش المعزولتين ، وهذا بدوره كان بمثابة خطوة كبيرة للتوسع فى شمال سوريا نفسها .. والجدير بالذكر أن الملك « رمسيس الثانى » قد قام بتصوير استيلاؤه على قلعة دابور فوق الجدار الغربى للفناء الأول بمعبد الأقصر وفى قاعة الأعمدة بمعبد الرمسيوم بغربى طيبة بأسلوب فنى رائع يعد من أروع النماذج الفنية لمناظر المعارك خلال عصر الرعامسة ، كما يلاحظ أن ثمانية من الأمراء من أبناء الفرعون قد شاركوا فى الاستيلاء على دابور .. وفيما بعد أتجه الفرعون شمالاً وأحتل مدينة تونيب المستقلة.

وبمجرد عودة الفرعون بجيشه إلى مصر ، لم يجد جواسيس خيتا وقرقميش صعوبة تذكر فى تحريض المدن المحتلة مثل أوبى ودابور على ابعاد المفوضين المصريين والعودة إلى حظيرة الحيثيين. فمصر بعيدة جداً وجيوش قرقميش وحلب ونحاس قريبة جداً مما يمثل لهم تهديدًا مباشراً ، لذا فقد عادت هذه المراكز بعد فترة احتلال مصرية قصيرة إلى الخضوع لحكم الحيثيين .. ومن ثم ففى العام العاشر من حكم الفرعون (١٢٧٠ ق. م) ، استدعى الأمر قيام « رمسيس الثانى » بقيادة جيش مصر مرة أخرى فى حملة جديدة لتأكيد سطوة مصر وسيادتها

على تلك المنطقة الاستراتيجية فى الشرق الأدنى ، حيث توجه إلى سوريا من جديد بعد حدوث تمرد بين بعض المدن السورية الشمالية مثل أوبى ودابور ، وأعلن عن اجتيازه لأراضى فينيقيا بإقامة لوحة له بعد أن مر بمحاذاة نهر الكلب ، ثم سار فى اتجاهين شرقاً وشمالاً وقام بالاستيلاء على قلعة دابور الحيثية للمرة الثانية وأعادها إلى دائرة نفوذه ونجح فى إخماد هذا التمرد .. وقد حرص الفرعون فى مناظره ونصوصه الحربية بمعبدى الأقصر والرمسيوم على تصوير وتسجيل استيلاؤه الثانى على مدينة وقلعة دابور الحيثية بشىء من التباهى والتفاخر الشديد ، حيث صور وهو يطلق سهامه على دابور ، وذكر فى نصوصه أنه كان يقاتل على رأس جيشه ببسالة بدون أن يرتدى درعه الواقى .. وبعد هذه الحملة أوقف « رمسيس الثانى » حملاته فى سوريا وذلك من العام الحادى عشر وحتى العام السابع عشر ، وقنع بالسيطرة على مستعمرات مصر التقليدية فى سوريا.

بين الحرب والسلام ..

« السلام خير من الحرب ! » .. بهذه الكلمات ذات الأثر العميق ، والتى وردت على لسان « مواتلى » ملك الحيثيين فى نصوص الملك « رمسيس الثانى » عن معركة قادش ، أنتهى الصدام الحربى الكبير الذى وقع بين المصريين والحيثيين فى قادش .. ويبدو أن عبارة الملك الحيثى قد حملت بين حروفها نبوّة للمستقبل الذى ستشهده العلاقات بين القوتين العظمتين فى الشرق الأدنى القديم .. ولكن ، لم يكن الطريق نحو السلام ممهداً ومفروشاً بالورود ، فعنف الصراع السياسى والحربى بين مصر وخيتا والذى أمتد منذ نهاية الأسرة الثامنة عشرة وحتى عهد « رمسيس الثانى » ، جعل المبادرة إلى إقرار السلام بين الطرفين أمراً صعباً ومعقداً يحتاج إلى قادة وزعماء من طراز خاص ونادر فى كلا الإمبراطوريتين .. ومما لا شك فيه ، أن الحقائق التاريخية قد أثبتت مدى عظمة « رمسيس الثانى » وشجاعته فى إقرار السلام ، كما أثبتت من قبل عظمته وبسالته فى خوض الحرب والصدام مع أكبر قوة عسكرية فى عصره.

ولقد حالت الأحوال الداخلية فى دولة خيتا دون القيام بعمليات عسكرية مضادة للتقدم المصرى فى السنوات التى تلت معركة قادش الشهيرة ، حيث توفى الملك الحيثى « مواتلى » دون أن يترك وريثاً للعرش. ووفقاً للتقاليد المتبعة فى البلاط الحيثى ، فكان يتولى العرش الابن

الأكبر لمحظية الملك ، وعلى ذلك فقد تم تعيين « أورخى تيشوب » ملكاً وعاونه على ذلك عمه « خاتوسيل » احتراماً للقواعد التى نصت عليها الشريعة الحيثية ، وتولى « أورخى تيشوب » العرش تحت اسم « مورسيل الثالث ». إلا أنه سرعان ما دب النزاع بين « مورسيل الثالث » وعمه ، واستمر هذا النزاع قرابة السنوات السبع ، وتمكن « خاتوسيل » من إنهائه لصالحه ، حيث تمكن من أسر ابن أخيه ونفاه فى شمال سوريا ، وأعلن نفسه ملكاً وأعتلى العرش الحيثى تحت اسم « خاتوسيل الثالث » .. وحاول « مورسيل الثالث » وهو فى منفاه الاتصال بالبلاط البابلى والتآمر على عمه ، ولكن مؤامرته انكشف أمرها ، فتم نفيه إلى قبرص ، لكنه تمكن من الفرار ولجأ إلى مصر. وإزاء هذا الخطر فقد بادر « خاتوسيل » بمطالبة « رمسيس الثانى » بتسليم « مورسيل » إليه إلا أن « رمسيس الثانى » لم يستجب لهذا الطلب ورفضه ، وأدى هذا الموقف من فرعون مصر إلى اشتعال الصراع وتجدده مرة أخرى بين مصر وخيتا ، فاستعد الملك الحيثى للحرب ضد مصر ، وسارع ملك بابل بعرض استعداده لإرسال قوات لمساعدة الحيثيين.

وتشير الوثائق التى عثر عليها فى عاصمة الحيثيين خاتوشاش (بوغازكوى بتركيا) إلى أن مسألة لجوء الملك الحيثى إلى مصر قد أثارت تداعيات دولية أثرت على مجرى الأحداث فى منطقة الشرق الأدنى القديم خلال هذه المرحلة ، كما أدت إلى عمل تحالفات دولية لمواجهة تداعيات هذا الحدث ، فقد أرسل الملك الحيثى « خاتوسيل الثالث » خطاباً إلى الملك « كادشمان انليل الثانى » ملك بابل ، وأخبره فيه أنه إذا لم يتخلى الملك المصرى عن مساعدة « مورسيل الثالث » فلن يكون أمامه سوى الحرب مع مصر .. ولقد تسارعت الأحداث بسرعة فى العام الثامن عشر من عهد « رمسيس الثانى » ، فقد أعلن حالة الاستنفار العسكرى فى بعض ولايات إمبراطوريته فى سوريا وكنعان ، وأخذت قواته أهبتها فى العديد من المواقع الشمالية فى مجدو وبيت شان ، كما عمل على تأكيد ولاء الحكام التابعين له فى سوريا ، وعبر عن هذه الأحداث فى لوح تذكارى أقامه فى بيت شان. ومما زاد الموقف السياسى صعوبة وتعقيداً ارتداد أمير خانيجالبات « شاتورا الثانى » عن السيادة الاشورية والتى كان على عرشها الملك الآشورى « شلمنصر الأول » وتحالف مع الحيثيين ، وقام بالاشتراك مع الجيش الحيثى الذى كان يضم فرقة عسكرية من قبائل الأخلامو باحتلال الممرات ومراكز المياه المواجهة

للآشوريين ، فما كان من « شلمنصر الأول » إلا أن توجه بجيوشه إلى المتمردين حيث سحق اعدائه واجتاح خانيجالبات كلها حتى وصل إلى أبواب قرقميش ، وهرب « شاتورا الثانى » من ميدان القتال وفر ناحية الغرب ، وتمكنت جيوش الآشوريين بقيادة « شلمنصر » من أسر حوالى ١٤,٤٠٠ رجل واحتلال عاصمة خانيجالبات وتسع مدن أخرى محصنة كما دمرت ١٨٠ منطقة أخرى ، وأصبحت الحدود الآشورية الغربية عند قرقميش ، وقد مثل هذا الانتصار الاشورى الكبير نهاية الوجود الحورى فى شمال العراق والذى استمر لأكثر من ثلاثمائة عام.

وبالنسبة للجبهة السورية فلقد أدى الانتصار الآشورى إلى امتداد جبهة آشور الأمامية عبر الفرات وأصبحت مواجهة مباشرة للإمبراطورية الحيثية ، وملاصقة فى نفس الوقت للمقاطعة السورية التابعة للحيثيين. وأدى هذا الموقف الجديد فى سوريا إلى ازدياد المشاكل أمام الحيثيين ، فأصبح لزاماً عليهم مجابهة قوتين فى آن واحد وهما القوة الآشورية والقوة المصرية على الجبهتين الشرقية والجنوبية لإمبراطوريتهم الواسعة ، وهو الأمر الذى لا قبل لهم بمجابهته رغم تحالفهم مع بابل ، فقد كانت الحرب على الجبهتين أمراً مستحيلاً.

وقد أدرك « خاتوسيل » كحاكم ذكى وواقعى قدر حقيقة أن المفاوضات مع مصر كانت هى السبيل الوحيد أمامه ، فآشور أستولت على الدور السابق للدويلات الحورية كعدو وخصم شرقى لخيتا ، ولم تظهر آشور أى نوع من الرغبة فى الوصول إلى إتفاقيات مع خيتا ، كذلك فإن الوضع الداخلى فى بلاده كان دائم التوتر بسبب إزاحته لإبن أخيه عن العرش ، وكان أنصار « أورخى تيشوب » يترقبون أى فرصة سانحة للثأر من « خاتوسيل ». ومما لا شك فيه أن الملك الحيثى قد عايش بنفسه مآسى حرب قادش التى أنهكت جيشه وأصبح غير قادر على الحرب فى جبهات متعددة كما كان الحال فى عهد « شوبيلوليوما الأول » .. ولهذه الأسباب مجتمعة أدرك « خاتوسيل الثالث » الأخطار المترتبة على إبقاء جو العلاقات متوتراً بينه وبين عدو الحيثيين التقليدى فرعون مصر الملك « رمسيس الثانى » ، ورأى أن الحكمة تقتضى عقد معاهدة سلام بينه وبين الملك المصرى ، تنهى حالة التوتر والحرب التى سادت جو العلاقات بين الدولتين العظيمتين لعشرات السنين قبل عهده ، وعندها فقط يستطيع أن يتفرغ لمجابهة أعدائه فى الداخل من أنصار « أورخى تيشوب » وخطر الآشوريين فى الخارج. وقد شجعه على ذلك أن « رمسيس الثانى » على الجانب الآخر قد تغاضى عما قامت به خيتا من أعمال عدائية

ولم يكن يحمل أية ضغينة عنصرية ضد الحيثيين. أما عن موقف مصر من " أورخى تيشوب " وتأييده من قبل " رمسيس الثانى " وترحيبه به وإستضافته له فى البلاط المصرى ، فقد رأى " خاتوسيل " فيه ترهيباً أكثر منه تهديداً ، كذلك فإن مصر لم تحاول مهاجمة الأراضى الحيثية .. ومن ثم فإن كل هذه الأمور مجتمعة تجعل إمكانية حدوث تغيير فى السياسة الحيثية تجاه مصر ، وبناءاً على ذلك بدأ " خاتوسيل الثالث " يستشعر الموقف للتعرف على إحتمالات تحقيق السلام بين البلدين ، ولإنجاح مسعاه مكث مدة يعمل على تصفية الجو ، لم يتخذ فيها أياً من الإجراءات العدائية ضد المصريين فى سوريا.

معاهدة السلام بين مصر وخيتا ..

جرت المفاوضات بين المصريين والحيثيين واستمرت عامين كاملين للتوصل إلى صيغة نهائية للمعاهدة ، قضاها المبعوثون الدبلوماسيون سعياً بين العاصمتين المصرية بر رعمسيس والحيثية خاتوشاش لمناقشة التفاصيل حتى أمكن التوصل إلى معاهدة بينهما أنهت حالة الحرب بين الدولتين ووضعت أسساً لقيام السلام بينهما ، وكان ذلك فى العام الحادى والعشرين من عهد الملك " رمسيس الثانى " ، وكتبت المعاهدة بالخط المسمارى الأكدى ، حيث كانت اللغة الأكدية هى لغة الدبلوماسية الدولية فى ذلك الوقت .. وتذكر المصادر المصرية أن الملك الحيثى " خاتوسيل الثالث " قد أرسل مبعوثين إلى الملك " رمسيس الثانى " ، وكان يومئذ فى عاصمته الشمالية بر رعمسيس ، حيث عرضا عليه مشروع معاهدة التحالف بين مصر وخيتا ، وكان المشروع مسجلاً بالخط المسمارى على لوحة من الفضة باسم " خاتوسيل " ، فقبله " رمسيس الثانى " من حيث المبدأ ، وكتب رجاله نصا آخر باللغة المصرية على لوح من الفضة أيضاً ، وبعد عدة مفاوضات بين الطرفين وضعت المعاهدة فى صيغتها النهائية ، حيث قام العاهلان المصرى والحيثى بالتوقيع عليها.

ولقد عثر على ثلاث نسخ للمعاهدة اثنتان فى مصر كتبا بالخط الهيروغليفى وكانت احداهما منقوشة على الحائط الجنوبى من بهو الأعمدة الكبير فى معبد الكرنك بطيبة ، والأخرى فى معبد الرمسيوم ، ولم يتبق من هذه الأخيرة سوى عشرة سطور فقط فى حالة مهشمة. أما النسخة الثالثة فقد عثر عليها فى العاصمة الحيثية خاتوشاش (بوغازكوى بتركيا حاليا) ،

وكانت مكتوبة بالخط المسمارى الأكدى ، وهى أقل اكتمالاً من النص المصرى.

ولقد حققت معاهدة السلام أغراضها ، وساد السلام بين أكبر قوتين فى الشرق ، وتبودلت الرسائل الودية بين الملكين ، وكذلك بين زوجاتهم ، وزادت الصلات بين البلدين بعد ذلك بزواج « رمسيس الثانى » فى العام الرابع والثلاثين من حكمه بالأميرة الحيثية ابنة « خاتوسيل » ، حيث أطلق عليها اسماً مصرياً هو « مات حر نفرو رع » ، وعوملت معاملة حسنة لم تحظى بها زوجة أجنبية من قبل ، إذ منحت لقباً كان وقفاً على سيدات البيت المالك المصرى وهو « زوجة الملك الكبرى وسيدة الأرضين ». وسجل هذا الحدث على العديد من المعابد مثل معبد الكرنك ومعبد أبوسمبل.

أما عن الموقف السياسى لحدود الإمبراطوريتين المصرية والحيثية بعد المعاهدة ، فقد تضمنت هذه المعاهدة عدة بنود تنظم العلاقات بين مصر وخيتا ، فنصت على ألا يكون لأحد الطرفين نوايا ومزاعم على مناطق الطرف الآخر ، وبذلك تخلى « رمسيس الثانى » عن آمورو وتنازل « خاتوسيل الثالث » عن مطالبه بالسيادة على سوريا. ومهما يكن فإن الحدود بين البلدين لم تتحدد بدقة إلا أن سوريا سبب النزاع أصبحت مقسمة على النحو الآتى : سوريا الشمالية والساحل الشمالى لفينيقيا أصبحا خاضعان لخيتا ، بينما أصبحت مناطق سوريا الجنوبية وجنوب فينيقيا وكنعان (فلسطين) تحت السيطرة المصرية .. وبالرغم من أن مصر بمقتضى هذه المعاهدة قد فقدت قادش وآمورو إلى الأبد ، إلا أنها قد ضمنت حقوقها فى الهيمنة على المرافئ الفينيقية ، والأفضل من كل هذا فقد وافق « خاتوسيل الثالث » على السماح للمبعوثين المصريين بالمرور شمالاً حتى أوجاريت وهو حق لم تحظ به مصر منذ أيام « أمنحتب الثالث » .. ولا شك أن الفرعون الذى بلغ أواسط العمر قد أصبح أقل إستعدادا لخوض معارك حربية عنيفة ، لذلك فإن حسم الصراع سلمياً يوفر الجهد والوقت لتوجيه اهتمامه إلى ميادين أخرى غير الحرب. ولا جدال فى أن التفاهم الضمنى على تقسيم مناطق السيادة والنفوذ بين الإمبراطورتين المصرية والحيثية والشروط المتبادلة فى المعاهدة التى وقعت بينهما فى السنة الحادية والعشرين من حكم « رمسيس الثانى » إنما يعكس التوازن الاستراتيجى بين الجانبين.

حملة إرم فى كوش ..

كانت منطقة إرم بالنوبة العليا (كوش) واحدة من المناطق التى تمثل تهديداً للسيادة والنفوذ المصرى فى بلاد النوبة ، ولقد ظلت الأوضاع فى النوبة ساكنة لمدة كبيرة منذ تلك الحملة التى قام بها « سيتى الأول » فى إرم ، بالإضافة إلى تلك الحملة الأخرى التى قام بها « رمسيس الثانى » حين كان أميراً فى منطقة النوبة السفلى .. ويبدو أنه فى الفترة ما بين العامين الخامس عشر والعشرين من حكم « رمسيس الثانى » ، شبت فى إرم بالنوبة العليا بعض الاضطرابات التى هدفت إلى زعزعة الحكم المصرى فى المنطقة ، الأمر الذى دفع الفرعون إلى ارسال حملة حربية فى الوقت المناسب لتعزيز موقف نائب الملك فى كوش. وقد أرسل الفرعون فى هذه الحملة أربعة من أولاده الأمراء ، منهم « ست إم ويا » ولده الثامن ، و« مرنبتاح » ولده الثالث عشر ، وكانا فتيين فى العشرينات من عمرهما. ولتوقف العمليات على الجبهة السورية ، كانت تلك الحملة بالنسبة لهما فرصة جيدة للتدريب ولاكتساب شىء من الخبرات العسكرية .. وقد نجح الجيش المصرى فى قمع هذا التمرد ، وأسفرت الحملة عن أسر سبعة الاف أسير نوبى ، والقضاء على ثورة إرم وقمعها بصورة تجعلها غير قادرة على القيام بأى محاولة مستقبلية لمقاومة الحكم المصرى فى النوبة. والجدير بالذكر أن تفاصيل هذه الحملة قد سجلت فى عمارة غرب العاصمة الإدارية المصرية للنوبة العليا (كوش) ، كما سجل هذا النصر فى أبيدوس بشكل مختصر ، أضيف إلى البوابة البرجية الثانية لمعبد « رمسيس الثانى » هناك.

الرؤية الاستراتيجية تجاه الحدود الليبية ..

مما لا شك فيه أن « رمسيس الثانى » كان مشغول البال دائماً بالجانب الغربى من الدلتا ، أى بالجبهة الليبية ، وهى جبهة شارك أباه فى حملته عليها حين كان لايزال أميراً. وفى أعقاب فترة الهدوء الاجبارى التى أعقبت معركة قادش ، قرر الفرعون الأخذ بسياسة طويلة المدى للسيطرة على الشريط الليبى الساحلى وفرض الرقابة الدائمة على سكانه. من أجل ذلك أخذ فى دعم سلسلة من المستوطنات بطول حافة الصحراء الغربية بالدلتا من منف وحتى البحر

المتوسط. ثم شيد الفرعون بعد ذلك سلسلة من الحصون على حافة الدلتا قرب البحر المتوسط ، وتنتشر لمسافة طويلة نحو الغرب ، خلف الساحل الليبى ، بداية من الغربانيات والعلمين وحتى زاوية أم الرخم .. ولقد كانت هذه الحصون تعمل على مراقبة تحركات قبائل البدو الليبية أو أية جماعات أخرى قد تأتى من الغرب الأقصى. وبذلك يكون من السهل كشف أية تحركات مريبة وارسال أخبارها بسرعة ، أو طلب الامدادات العسكرية لمواجهة أى تهديد بالغزو فى الوقت المناسب .. ويمكننا القول أن « رمسيس الثانى » كان أول من تنبه للأخطار التى أصبحت تهدد مصر من جهة الغرب والمتمثلة فى شعوب البحر الأقوياء ، فالليبيون كانوا دائماً ما يقومون بالهجوم على مصر ، ودائماً ما كانوا يتعرضون للهزيمة ، ولم تكن هناك حاجة حينذاك فى إقامة أى تحصينات على الجبهة الغربية حتى ظهرت شعوب البحر على مسرح الأحداث.

ولعل من الأهمية أن نشير إلى أنه قد عثر للفرعون « رمسيس الثانى » بالعلمين على إحدى اللوحات التى وصفته نصوصها بأنه قاهر الأعداء من الليبيين ، مما يشير إلى احتمال وقوع معركة محدودة معهم خلال فترة حكمه ، استطاع من خلالها الانتصار عليهم فى الصحراء الغربية كما فعل والده. والجدير بالذكر أن هناك أحد المناظر الشهيرة المسجلة على جدران الحائط الجنوبى للقاعة الكبرى بمعبد أبوسمبل الكبير الذى شيده الملك « رمسيس الثانى » فى النوبة ، والذى صور الفرعون من خلاله وهو يطأ بقدمه أحد الأسرى الليبيين ويقوم بطعن الآخر بحربته ، حيث أقتبس هذا المنظر بالكامل من أحد المناظر الحربية للملك « سيتى الأول » المسجلة على الحائط الشمالى لقاعة الأعمدة الكبرى بمعبد الكرنك. وقد صاحبت هذا المنظر بعض عبارات المديح والتبجيل التقليدية للفرعون ، وعبارة أخرى تقول : « إنه الذى حمل النوبيين إلى الدلتا ، والأسيويين إلى النوبة ، والذى وضع بدو الشاسو فى أرض الغرب ، والذى جعل التحنو الليبيين يقيمون فى المرتفعات ». ويبدو أن هذه العبارة تفيد قيام الفرعون بنقل النوبيين إلى الشمال والأسيويين إلى الجنوب ، وكذلك نقل بدو الشاسو إلى الغرب والليبيين إلى المناطق الجبلية ، وهى العادة التى أتبعها الكثير من ملوك عصر الدولة الحديثة مع أسرى الحرب الأجانب بنقلهم إلى مناطق مختلفة لاستخدامهم فى الخدمة العسكرية أو فى مشاريع الدولة كقوة عاملة ، الأمر الذى يشير إلى احتمال وقوع معركة فى عهده مع الليبيين.

ولقد أثبتت سياسة « رمسيس الثانى » ورؤيته الاستراتيجية تجاه الغرب مدى فاعليتها حيث ابتعدت مصر عن خطر الغزو من هذه الجبهة طوال فترة حكمه ، وهو الخطر الذى سوف تعانى منه مصر كثيراً خلال فترة عهدى ولده وخليفته « مرنبتاح » و« رمسيس الثالث » ثانى ملوك الأسرة العشرين ، حيث ستخوض مصر عدداً من الحروب والمعارك الحاسمة فى تاريخها ضد القبائل الليبية المختلفة وحلفائهم من شعوب البحر على الجبهة الغربية.

* * * * *

المراجـع

- Breasted, J.H., The Battle of Kadesh: A Study in the Earliest Known Military Strategy, Chicago (1903).
- Contenau, G., La Civilisation des Hittites et des Mitannienes, Paris (1934).
- Darnell, J.C. and Jasnow, R., 'On the Moabite Inscriptions of Ramesses II at Luxor Temple', JNES 52 (1993).
- Desroches-Noblecourt, C., Ramsés II Le Grand, Paris (1967).
- Davies, B.G., Egyptian Historical Inscriptions of the Nineteenth Dynasty, Jonsered (1997).
- Faulkner, R.O., 'The Battle of Kadesh', MDAIK 16 (1958).
- Gaballa, G.A., 'Minor War Scenes of Ramesses II at Karnak', JEA 55 (1969).
- Gardiner, A.H., The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxford (1960).
- Goedicke, H., 'Considerations on the Battle of Kadesh', JEA 52 (1966).
- Goedicke, H., Perspectives on the Battle of Kadesh, Baltimore (1985).
- Habachi, L., 'The Military Posts of Ramesses II on the Coastal Road and the Western Part of the Delta', BIFAO 80 (1980).
- Healy, M., The Warrior Pharaoh Ramesses II and the Battle of Qadesh, Oxford (1993).
- James, T.G.H., Ramesses the Great, Cairo (2002).
- Kadry, A., 'Some Comments on the Qadesh Battle', in: Bulletin du Centenaire (1981).
- Kitchen, K.A., 'Some New Light on the Asiatic Wars of Ramesses II', JEA 50 (1964).
- Kitchen, K.A., 'Historical Observations on Ramesside Nubia', in: E. Endesfelder et al. (eds.), Ägypten und Kusch, Berlin (1977).
- Kitchen, K.A., Pharaoh Triumphant: The Life and Times of Ramesses II King of Egypt, Warminster (1982).
- Kuentz, Ch., La Bataille de Qadech, Le Caire (1928).
- Lalouette, C., L'Empire des Ramses, Paris (1985).

- McCarthy, H.L., 'The Function of "Emblematic Scenes" of the King's Domination of Foreign Enemies and Narrative Battle Scenes in Ramesses II's Nubian Temples', JSSEA 30 (2003).
- Montet, P., L' Égypte au Temps des Ramsès 1300-1100 avant J.- C., Atlante (1995).
- Morris, E.F., The Architecture of Imperialism, Military Bases and the Evolution of Foreign Policy Egypt's New Kingdom, Leiden (2005).
- Noth, M., 'Ramses II in Syrien', ZDPV 64 (1941).
- Raafat Abbas, M., 'A Survey of the Diplomatic Role of the Charioteers in the Ramesside Period', in: Chasing Chariots. Proceedings of the First International Chariot Conference (Cairo 2012), Edited By: André J. Veldmeijer & Salima Ikram, Leiden (2013).
- Raafat Abbas, M., 'The Bodyguard of Ramesses II and the Battle of Kadesh', ENiM 9 (2016).
- Raafat Abbas, M., 'A Survey of the Military Role of the Sherden Warriors in the Egyptian Army during the Ramesside Period', ENiM 10 (2017).
- Redford, D.B., Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times, Princeton (1992).
- Schulman, A.R., 'The Narn at the Battle of Kadesh', JARCE 1 (1962).
- Spalinger, A.J., 'Traces of the Early Career of Ramesses II', JNES 38 (1979).
- Spalinger, A.J., 'Historical Observations on the Military Reliefs of Abu Simbel and Other Ramesside Temples in Nubia', JEA 66 (1980).
- Spalinger, A.J., 'Considerations on the Hittite Treaty between Egypt and Hatti', SAK 9 (1981).
- Spalinger, A.J., War in Ancient Egypt, Malden (2005).
- Tyldesley, J., Ramesses: Egypt's Greatest Pharaoh, London (2000).
- Weigall, A., Histoire de L' Egypte Ancienne, Paris (1968).